

البنوية بين العلمية والإيديولوجية

The Structuralism ; Between Science and Ideology

* صافية دراجي¹ / فرحات لعودي²Safia Derradji¹ / Ferhat Laoudi²

مخبر الثقافة العربية في الأدب وقده.

جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية (الجزائر)

University of Abderrahmane Mira – Bjaia (Algeria)

Safia.Derradji@univ-bejaia.dz¹ / ferhat.laoudi@univ-bejaia.dz²

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/10/26

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

يتناول المقال المنهج البنوي الذي ظهر في ستينات القرن الماضي في فرنسا، وانتشر في كل أرجاء العالم، بعده مرصد بحث هام في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وسيطر على الساحة النقدية والفكرية لفترة طويلة من الزمن، فالبنوية من أوائل المناهج التي تتناول الظاهرة الإنسانية والاجتماعية والأدبية تناولاً علمياً دقيقاً، يقوم على مبدأ المحايثة. وفي استقراءنا لسيرة ومسار المنهج البنوي توصلنا إلى نتائج لعل أهمها تتعلق بعلمية ومحايثة المنهج البنوي أساساً، ولكن رغم ريادتها في استقراء الظواهر الإنسانية بقواعد علمية منهجية صارمة ورغم الشهرة التي حضي بها المنهج في الغرب وعند العرب إلا أنه كان يحمل في طياته إيديولوجية غربية، وقد أصر المنهج في بداية ظهوره على رفض الإيديولوجية مهما كانت مبرراتها، مؤمناً أن الظاهرة تدرس بعدها بنية مغلقة، متحولة داخل مسار ثابت من الوظائف القارة. أما في مجال الأدب والنقد فإن المحايثة لا يمكنها أن توصل إلى نتائج يقينية، فالنص ليس مجرد كلمات، إنما هو حياة تعطي لهذه الكلمات بوجود سياق عام محيط بالإنتاجية.

الكلمات المفتاح: المنهج – البنوية – العلمية – الإيديولوجية – اللغة – النقد.

Abstract :

The article discusses the structuralist approach, which originated in France in the 1960s and eventually extended around the world. It emerged as a prominent study paradigm in the human and social sciences, including literature, and dominated the intellectual and critical scene for a significant period of time. It is regarded as one of the first methods to studying human, social, and literary phenomena using a rigorous scientific method founded on the principle of immanence.

* صافية دراجي: Safia.Derradji@univ-bejaia.dz

In our examination of the history and evolution of the structuralist approach, we have reached various conclusions, the most notable of which is that structuralism despite its merits and pioneering role in methodically and scientifically analysing human phenomena. Despite its popularity in the West and among Arab scholars, the structuralist approach eventually fell out of favour, particularly in the field of literary criticism, due to its reliance on immanence and exclusion of the producer and the surrounding conditions of production. Discourse, at its core, is language, and language is communication, which is based on intention. And purpose cannot be determined without going to the environment of the act of production.

Keywords: Method – Structuralism – Scientific – Ideology – Language - Criticism



المقدمة:

يعد المنهج البنوي من أهم المناهج اللسانية التي ظهرت في ستينات القرن الماضي في أوروبا، وبالضبط في فرنسا، يهتم بكل الظواهر الإنسانية والاجتماعية، كان ولا يزال ذا باع واسع، وأتباع في كل الأصقاع. وكان رواه الخمسة الأوائل الذين نادوا بالبنوية بعدها دراسة علمية – وصفية – محايدة ينحدرون من حقول معرفة مختلفة، كالآداب والنقد والإعلام، والفلسفة، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا والتفكيكية، ورغم انبساطها الواسع، ورغم ذيعان صيتها إلا أنها لاتزال إلى اليوم بين مد وجزر، بين أخذ ورد لاسيما في مجال اللغة والنقد بين مؤيد لها، مكبر علميتها، منصاع لآلياتها، وبين رافض لها منتقد انغلاقها، معارض يرى فيها سعي لأقصاء تراث عرفه النقد العالمي لقرون طويلة من الزمن كان فيه صاحب النص والسياق سيد المعنى، ورب المقاصد.

وعليه فإن السؤال الجوهرى الذي يفرض نفسه منذ الانطلاقة الأولى معبرا عن إشكالية البحث هو:

هل البنوية منهج علمي صارم كما يدعي رواه ومتبنيه، أم أنه منهج إيديولوجي؟

ليتفرع عن هذه الإشكالية سؤالان آخران مفادهما:

هل لاتزال البنوية تبسط نفوذها على ساحة النقد العالمي، أم أنها تراجعت؟

وماهي حجج خصوم البنوية لإثبات إيديولوجيته وقصوره؟

وإننا نسعى في هذا البحث إلى إعادة قراءة المنهج البنوي، وإعادة سرد مساره العلمي المقرون بإيديولوجية واضحة من خلال المشارب الفكرية التي تكون الخلفية الذهنية لرواده، رغم أن البنوية لها قيمة كبيرة جدا إذ وجهت الأنظار نحو أفق تلق جديد وقراءة جديدة ورؤية علمية محتمة بالخطابات البشرية ومختلف المشارب والأرضيات التي تشكل الفكر الإنساني عموما.

وللغوص في هذه المسائل تناولنا بالدراسة مجموعة من العناصر كالسياق العام الذي تحكم في الإنتاجية، وودواف الظهور وتأثير الشكلائية، مع النظر في بعض أسس المنهج كموت المؤلف، ولغة الجسد عند بارط، ثم البنوية بين القبول والرفض، واضعين المنهج في ميزان النقد.

1-السياق العام لظهور البنوية:

تقوم مدرسة النقد الجديد (الحداثي وما بعد الحداثي) على مجموعة من المعايير أهمها على الإطلاق اعتبار اللغة سيدة الموقف في الكتابة فينظر إليها باعتبارها الشكل والبنية والدلالة. فتدرس لذاتها وفي ذاتها وقد عبر عن هذه الرؤية صراحة "رولان بارط" بقوله: "المؤلف مشغول بالكلمات لا بالعالم"¹. ويقول: "إن العمل الأدبي لا يحيطه أو يسميه أو يحمي أو يوجهه أي موقف وليس فيه حياة علمية تقول لنا أي المعاني نعطيها"². فيحول "بارط" مسؤولية الناقد فيما يخص المعنى إلى العناية لا بالنتاج بل بالنظام الذي أنتجه، لا بالعلامة بل بطريقة الدلالة فهو يريدنا أن نفهم "كيف" تعني النصوص قبل البحث في "ماذا تعني"³ وبهذا انقلبت النقد من المعيارية التي كانت تحكمه لعدة قرون وسعى أصحاب هذه النزعة التي تؤسس لعالم المنهج كاستراتيجية بحث علمي خالص إلى علمنة النقد، بعد أن طالبوا بضرورة الابتعاد عن الإيديولوجية بكل أشكالها مهما اختلفت صفتها.

بدأ مشروع العولمة يسارع خطاه نحو الأمام خاصة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية وما خلفته من آثار وخيمة على المجتمع البشري برمته بعد موت الملايين من البشر وانغراس عقدة الخوف والدمار في النفوس، فكان الاعتقاد السائد أن الطبقة البرجوازية والحكومة الديكتاتورية هي سبب هذه الأزمات فكان لابد من البحث عن وحدة بشرية عالمية تلغي كل أشكال الأيديولوجية، كان البحث عن البدائل بكل أشكالها في العلوم والفنون والفلسفة وفي كل ما يحيط بالإنسان والكون.

افترزت هذه الرؤية خاصة بظهور أفكار فلسفية واسعة قد تتألف وقد تتناحر ولكنها تلتقي في نقطة جوهرية مركزية أن الإنسان وكيل نفسه، وسيد ذاته وعليه أن يحيا عالم الحرية المطلق والسعادة الأكيدة، فانتشرت الوجودية السارتية في فرنسا خاصة، وانطلقت الماركسية من روسيا لتنبسط إنبساطا واسعا على كل أرجاء المعمورة ووصلت حتى إلى الدول العربية. أما "نثشه" فيلسوف القوة فيقولها صراحة إنك إن لم تظلم تظلم (بضم التاء)، والإنسان عنده مخلوق شيطاني شرير.. إنه كائن خرافي نصف حيواني ونصف إنساني⁴.

وآمن أصحاب هذه النزعات الفلسفية وغيرها أنه لا إله للكون، وأن المعمورة جاءت نتاج صدفة وارتقاء حسب نظرية التطور والارتقاء لصاحبها "داروين" الذي يعتقد بروحه العلمية أن البشر كانوا قردة. ويمكن اعتداد "رولان بارط" كمثال توضيحي لهذه الرؤية حيث كان جزءا من وجودية "سارتر". وهو ضد الفلسفة الجوهرية التي تؤمن بأن في كل فرد إنساني جوهر نهائيا ما لا يتغير يفرض علينا التصرف أثناء مسيرتنا الحياتية. والجوهرية من الفلسفات الحتمية.

كما تؤمن الوجودية السارتية التي اعتنقها "بارط" بحرية الفرد الإنساني في التغير المستمر والهروب من قبضة الماضي أو من أي تشديد نهائي يفرضه الآخرون. فالوجود يسبق الجوهر. ويرى "بارط" أن الجوهرية هي الإيديولوجية التي تغدي البرجوازية.. والبرجوازية هي عدو كل المفكرين الفرنسيين⁵.

فترى العلاقة التلازمية بين الفكر الفلسفي من جهة والفكر النقدي من جهة أخرى. أو ربما هي الدلالة الأكيدة على أن عالم المفاهيم والأفكار في تحاور تلازمي مستمر حتى وإن كان هناك تباعد أكيد للإطار الزماني والمكاني.

2- بدايات المنهج البنوي وأسسها :

ظهرت البنوية بعدها بداية رؤية فلسفية، وقد عبر عن هذا الجو الفكري السائد أن فلسفة جديدة بدأت في الظهور بأسطة ذراعها، إنها عبارة عن مجموعة من المبادئ الفلسفية⁶. وإن النماذج التي تستحق اسم بنية جميعها يجب أن تتسم بطابع المنظومة، إذ بها تتألف من عناصر يستتبع تغيير أحدها تغيير العناصر الأخرى كلها⁷. ولقد تطورت البنوية لتصبح منهجا علميا أو قاعدة علمية -وليس مذهباً- إذ أنها تتسم بالطابع العقلاني والمباشرة.

تقوم البنوية على قواعد شمولية ثابتة يمكن أن تتحدد في الكلية والتحول والانتظام الذاتي، هي قواعد قارة تشكل كل البنيات، أو بمعنى آخر تخضع البنيات الشمولية لنظم من الثوابت المنتظمة.

تعني الكلية أو الشمولية التماسك الداخلي المحكم لعناصر البنية، فانتظام العناصر كامن بذاته، وموجود بالأصل، وليس مجرد جمع وجرد للأجزاء المتفرقة، فالبنية لها قوانينها الخاصة التي تضفي على مكوناتها قانوناً اعتماداً على العلاقات القائمة بينها، وهي علاقات وقوانين ذاتية داخلية. يفقدها العنصر إذا خرج من البنية كيانه الأكبر والأساس الذي تحدده البنية. وهذه البنية متحولة، فيتولد عنها عدد من العمليات الجديدة، المتفرقة. فالجملة يخلق منها عدد كبير من الجمل التي تبدو جديدة تماماً مع أنها لا تخرج عن قواعد النظام اللغوي للجملة. هذه القواعد التي قلنا إنها قارة ثابتة، ويتم هذا التحول بفضل (الانتظام الذاتي أو التحكم الذاتي) للبنية حيث لا تحتاج إلى مكون من خارج بنيتها لتكسب عملياتها التحويلية صيغة مشروعة، فيقوم هذا التحكم الذاتي بحماية التحويلات وتأمينها وبغلق النظام لكي لا تتحكم فيه أنظمة أخرى، إنها تتحرك -كما تؤكد عليه البنوية- في إطار قار ثابت.

البنوية منهج لمعالجة الوجود، وطريقة في الرؤية، وهي تثوير جذري للفكر، وعلاقته بالعالم، وموقعه منه، وإيرائه، فهي تغير الفكر الذي يعاين اللغة والمجتمع والشعر وتحوله إلى فكر متسائل قلق، متوثب، مكتنح⁸.

يقوم التحليل البنوي على الاستقراء المنطقي من منطلق اعتبار النص كتلة واحدة مترابطة ومنسجمة، ينظر إليها بعدها بنية مغلقة فنتتبع وحداتها وتمفصلاتها بدءاً من أصغر مستوى إلى أعلاه، كما ينظر في العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية النصية من منظور حضور ذهني.

يرى "ليني ستروس" أن البنية تحمل أولاً وقبل كل شيء طابع النسق أو النظام، فهي تتألف من عناصر، إذا تعرض الواحد منها للتغيير أو التحول أو الإضافة أو النقصان تحولت باقي العناصر المرتسمة فيه، ذلك أنه رغم التنافر الظاهري الذي نلاحظه بين البنى والظواهر في المجال الإنساني فإن هناك قواسم مشتركة وروابط تربط بينها، والعلمية تعتمد في دراسة الآثار والفنون من فلسفة وعلم النفس وأنتروبولوجيا.

كما يقوم التحليل البنوي على الاستقراء المنطقي من منطلق اعتبار النص كتلة واحدة مترابطة ومنسجمة، ينظر إليها بعدها بنية مغلقة، فنتتبع وحداتها وتمفصلاتها بدءاً من أصغر مستوى إلى أعلاه. وينظر في العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية النصية من منظور حضور ذهني. أي "ندرس العلاقات القائمة بين عناصر في نظام يشترط كل منها الآخر وليس بين جواهر كل منها مستقل بذاته"⁹. كما تحاول البنوية أثناء التحليل فك الشفرات الدالة بالتفسير،

والتفسير اقتراب من الدلالة وليس قبضا عليها، لأن الدلالة تستشف من خلال دراسة المقاصد أو ما يسميه "الجرجاني" معنى المعنى وتهتم بهذا الجانب الدراسات التداولية.

إن أول تطعيم للمنهج البنوي كان على يد اللساني الشكلائي "رومان جاكسون" بمعية الأنثروبولوجي البنوي "كلود ليفي ستروس" حيث تضافرت جهود الاثنين فكتبنا معا تحليلا بنويا لقصيدة القطط لـ "بودلير" فكانت هذه الدراسة بداية الانطلاق الفعلي والرسمي للبنوية بعدها منها علميا - استقرائيا لغويا بعد أن أدرك "ليفني ستروس" - الذي كان يعتمد على المنهج التاريخي والتحليلي لدراسة البنى الاجتماعية أن هذا المنهج لا يسفر عن نتائج يقينية ومقتعة. وأن الاعتماد على النموذج اللغوي سيكون أكثر عونا وأشد خصوصية.

ينطلق "ليفني ستروس" من مسلمة أساسية وهي أن كل أنثروبولوجيا يجب أن تكون بنوية بالضرورة. إن قولنا الأنثروبولوجيا البنوية ما هو إلا تحصيل حاصل. ويرى "ستروس" بأن كل ما يعرف باسم العلوم الإنسانية هي تسمية في غير محلها.. إن العلوم إما أن تكون بنوية أو لا تكون على الإطلاق¹⁰. وفي هذا إقصاء لميراث عرقته الإنسانية في مسارها الحضاري، وإلا ما معنى أن يكون لقب العلوم الإنسانية لقب في غير محله؟

ويؤكد على هذه النقطة "ميشال فوكو" الذي يرى أن العلوم الإنسانية لم تتلق أي ميراث من العصر- الكلاسيكي، لأن الأرضية الفكرية لذلك العصر لم تكن قد عرفت بعد مفهوم الإنسان. بل لأن العلوم الإنسانية ذاتها لم تكن قد ظهرت.. إن المجال الأستقولوجي الذي قطعته العلوم الإنسانية طيلة مسارها لم يخضع للتقادم، فلا فلسفة ولا خيارا سياسيا أو أخلاقيا، ولا أي علم تجريبي مما يكن ولا أية ملاحظة للجسد الإنساني ولا أي تحليل للإحساس أو التصور أو الافعال صادف شيئا يشبه الإنسان منذ القرن السابع عشر ذلك أن الإنسان لم يكن قد وجد بعد¹¹. ورغم أن المفهوم الذي يقصده "فوكو" إنما هو فلسفي أكثر منه واقعي لكن نعتقد من خلال ما وصلنا أن صورة الإنسان تجلت أكثر في الإنسان القديم، وإذا كان هناك اختلاف بين الإنسان الغربي والإنسان الشرقي - العربي خصوصا فإننا نقول إن كل مظاهر الإنسان والإنسانية والوجود البشري بقيم متعالية كان عن الإنسان المشرقي لقرون طويلة من الزمن.

3- دور الشكلائية في ظهور البنوية:

هناك مدرسة أخرى- إضافة إلى هذه الدوافع التي أسهمت في ظهور المنهج البنوي- أثرت تأثيرها البالغ في حدوث نهضة النقد ما بعد الحداثي وهي مدرسة الشكلائين الروس والتي نشأت من جهود تجمعين أدبيين:

- حلقة موسكو اللسانية التي تكونت سنة 1915 ويطلق عليها اسم MLK

وكان عنصرها البارز "رومان جاكسون".

- حلقة سان بترسبورغ (لينينكراد) ويطلق عليها اسم OPOIAZ.

علما أن ظهور الشكلائية إنما يعزى إلى الفترة التي تميز فيها الأدب الروسي وخصوصا الدراسة الأدبية بأزمة منهجية، حيث كان الأدب في روسيا خاضعا لهيمنة نقد سوسيولوجي له خلفيات سياسية وإيديولوجية وقد صاغ الشكلائيون عملهم استرشادا بمبدأين اثنين هما:

- المبدأ الأول وقد لخصه "جاكسون" قائلا: "إن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب وإنما الأدبية Littérarité وبذلك حصروا اهتمامهم في نطاق النص. وهي الرؤية ذاتها التي تعتمدها البنوية.

- المبدأ الثاني: ويتعلق بمفهوم الشكل فقد رفضوا رفضا باتا ما كانت تذهب إليه النظرية النقدية التقليدية من أن لكل أثر أدبي ثنائية متقابلة الطرفين هي الشكل والمضمون. وأكدوا أن الخطاب يختلف عن غيره ببرز شكله¹². وهو ما سيتجاوزه المنهج البنوي إذ الاتفاق الحاصل بين أعمدة البنوية الخالص خاصة (كلود ليفي ستروس، رولان بارت، ميشال فوكو، جاك لاكان) أن البنوية عبارة عن تصور ذهني عقلائي أكثر مما هو علاقات محسوسة مادية¹³. كما أن البنوية لا تهتم إلا بما هو واقعي وحقيقي وتستبعد كل ما هو معيش، كما يستبعد التحليل البنوي أي تدخل للشعور في تفسير الظواهر¹⁴. إنها أداة مادية بحتة، وإن كان هناك معنى أو دلالة فإنما يتجلى فقط من خلال الشكل.

4-البنوية وموت المؤلف:

يقوم الفكر البنوي - إضافة إلى تجاوز كل أشكال الدراسات الإيديولوجية والاهتمام بالأثر بعده بنية مغلقة على دعامة أساسية هامة متعلقة بما ينعتقه الباحثون بـ"موت المؤلف" وإن كانوا يقولون بأنه موت وهمي فقط، إلا أنه في الحقيقة مع "فوكو" ليس بالموت الوهمي إنما الموت الفعلي لكل ما له علاقة بالإنسان.

كان البنويون المهتمين بدراسة الخطابات الأدبية يقصدون بهذا شعار "موت المؤلف" ألا تصبح البيانات المرتبطة بالمؤلف هي جوهر الدراسة النقدية للأدب أو هي نقطة الارتكاز الاستراتيجية الموجهة للعمل التحليلي النقدي¹⁵. فالكتاب كما يقول "رولان بارت" لا يكتبون للتعبير عن ذواتهم إنهم يملكون فقط القدرة على خلط أو تركيب كتابات موجودة بالفعل. إن ما يقوم به الكاتب هو تجميع هذه الكتابات وإعادة نشرها وهو في ذلك يستفيد من القاموس الضخم للغة والثقافة والذي يكون مكتوبا بالفعل قبل مجيئه¹⁶. فالأديب باعتباره كائنا اجتماعيا يخضع لمنظومة واسعة من القيم المتحركة في بنائه. فهو بذلك حتما سيخضع لهذه المنظومة الثقافية ومن هنا فلن يكون الأديب في الأول والأخير إلا مجرد ناسخ لا دور يؤديه داخل النص إنما يقتصر دوره وحسب على الأخذ (الجمع الخاضع للاختيار) من هذا الموروث الجمعي.

ويتعامل المتلقي مع النص ولا يتعامل مع صاحب النص الذي يكون حتما غائبا أو كما يقول "جاك دريدا": "المتكلم ليس موجودا ليفسر للمستمع ما يدور بذهنه"¹⁷. ثم يقول "رولان بارت": "إن العمل الأدبي لا يحيطه أو يسميه أو يحميه أو يوجهه أي موقف وليس فيه حياة عملية تقول لنا أي المعاني نعطيها وكلما كثرت المعاني التي يضمها النص كان ذلك أفضل"¹⁸، ليمح هذا القرار الدور للمتلقي ليتحول إلى صاحب أثر يدره بمعاني يستشفها من خلال رؤيته لبنية النص التي تنفتح على تعدد القراءات، وعلى القراءات اللامتناهية.

5-من موت المؤلف إلى لغة الجسد:

ولو تأملنا آراء "بارت" جيدا للاحظنا دعوته إلى التحرر من العقل والتعامل مع الجسد، فكثيرا ما يتحدث عن المتعة واللذة ثم إنه يبجل الرأي القائل: "إننا حين نكتب نكتب ما تلميه علينا أجسادنا إلى حد ما وإذا لم نفعل ذلك فإننا سنعجز عن الكتابة الحقيقية عجزا تاما"¹⁹. والتعامل مع الجسد واللذة وبهذه الطريقة التي تدخل فيها الأثني إلى حيز النشور في الفن الأدبي والبنوية الأدبية أمر يكتنفه الكثير من الغرابة فكيف يمكن للنص أن يصبح جسدا له لذة.. ليست متعة.. نلاحظ هذا جليا في كتابه "لذة النص": "حالة العشق حالة مؤلمة.. لكن هذا الألم تقابله لذة العاشق"²⁰.

إن "بارط" يختار الجسد في مقابل اللاوعي الذي يعتمده "جاك لاكان: و"ميشال فوكو" كما أن نبد المعتقد دعوة أخطر أدت إلى ظهور أجناس بشرية أخرى في السلالة البشرية تملك كل شيء ولا تملك شيئاً تعيش الفراغ وتفقد ثقبتها في كل شيء. وكان الفيلسوف الفرنسي- "جاك دريدا" صاحب المنهج ما بد البنوي (التفكيكي) قد أخذ على عاتقه مسؤولية الإخلال بالآراء السائدة والحديث عن هذه الهوية العميقة القائمة بين الأفراد في بنية اللغة وفي الحياة ذاتها. ولا يمكن الحديث عن "جاك دريدا" دون الحديث عن "رولان بارط" و"ميشال فوكو"، و"جاك لاكان" و"ليني ستروس" ليس لأنهم ينضون جميعاً تحت طاقم المنهج الضد إنساني فقط ولكن لأن آراء البنوية في اللغة والفلسفة وعلم النفس هي منطق "دريدا" في حديثه عن قضايا محممة وخطيرة، ودعوته في الآن ذاته إلى تبني رؤية جديدة كانت فعلاً رؤية ضد إنسانية لما آلت إليه البشرية من دمار في كيانها الذاتي والأسري والاجتماعي.

تري ما بعد البنوية أن الإدراك والمعرفة البشريين مشوبان بالنقص ونحن لا نملك معرفة حقيقية حول أنفسنا. وكياننا الإنساني يخضع خضوعاً حتمياً لعدم استقرارية اللغة. وحسب الدكتور "عبد العزيز حمودة": "إن نقطة الضعف الأساسية في المشروع البنوي أنه أراد انطلاقاً من طموح مشروع لتحقيق علمية الدراسة الأدبية أن يقنن للنقد ويضع له الضوابط والأحكام الموضوعية، وحينما فشل المشروع البنوي في تقديم مشروع مقنع وشامل لتفسير الدلالة اتجه نقد ما بعد البنوية إلى البديل المضاد²¹. والبديل المضاد هو أن كل قراءة هي إساءة قراءة، ولا يوجد مركز ثابت في الوجود ولا مركز للكلمة لذا نرى أن التفكيكية ترى أن الحضور عبارة عن وهم. و"دريدا" يدافع عن فلسفة الغياب فالإنسان يبحث عن الشيء غير الموجود الذي لا يراه وغير الواقعي. إن له رغبة ملحة في الإدراك لا يدركها وفي التمرد يتغنيا قدر المستطاع. وحسب "دريدا": "إذا كان التفكيك مدمراً فليدمر كل شيء من أجل إعادة بنائه من جديد".

إن علاقة الفلسفة بالحياة والإنسان متينة. بل إن المسار الحضاري للإنسان وتشكل شخصيته، وتطور القيم التي يحيا بموجبها إنما يكون من خلال تأثير الفكر الفلسفي. وفلسفة "دريدا" مست فعلاً جوانب هامة من الكيان الحضاري والعلمي للإنسان خاصة وهي تزام النهضة العلمية الخطيرة التي نمر بها والتي لم يشهد مثلها عصراً من العصور أين أستبدل الإنسان بالآلة واستبعد بطريقة غير مباشرة وأصبحت العلاقات القائمة بين بني البشر- لا تقوم على المادة فحسب إنما يشغلها البون الواسع والفجوة العميقة وانحياز الذات. فكما أقر "دريدا" الدمار في كل مكان وفي كل شيء. وكل قراءة هي إساءة قراءة وكل وجود هو فراغ وكل حرية هي قيد. بل إن دعوة البنوية وما بعد البنوية لإيقاد الإنسان من سجن المجتمع وقبضة المعتقد هي التي قادتته إلى النفور من هذه الحياة بعد أن شبع من كل شيء مادي واستبدلت كل القيم الروحية بالقيم المادية.

لقد تغير كل شيء مع الإنسان الحديث وما بعد الحديث، مع الإنسان البنوي وما بعد البنوي، مع الإنسان الآلي والمرقن، وظل يصارع من أجل اكتشاف الحقيقة، وبلوغ أقصى رغباته، بالتححر والاعتناق، والبحث عن الحرية المطلقة. إن الإنسان المادة قد انفصلت روحه عن جسده ليعطى لهذا الجسد كل ما يستهويه ويريد من نوازع ورغبات.. وتبقى الروح معذبة تعيش الفراغ، لا تؤمن حتى بوجودها من منطلق إقصاء المحيط الذي يحيط به هو ويحيط بالبنية وبالخطاب. وإيمانه اللاشعوري بعدم وجود الإنسان وهي الفكرة الأساسية التي أراد "ميشال فوكو" وأتباعه أن يصل إليها، إنسان ما بعد القرن السابع عشر. وفعلاً وصل إلى مأساة الانهزام والفشل ورفض الذات والوجود وقراءة

الخراب والدمار في كل ما يحيط به. فكما تظهرت فعالية المنهج البنوي وما بعد البنوي في قيمته العلمية التي حملها، بقدر ما ظهرت نحو ذلك النزوع قصد تخطيم كل شيء وتخطيم أساس الإنسان باعتباره كائنا متفاعلا له وجوده داخل البرنامج اللغوي والحضاري الذي يجعله يتحرك داخل سلم من الاعتبارات تصنعها المؤسسة الوجودية التي تحرر القيود وتقيّد الحريات بعقلانية عدالة إنسانية. إنه لا يمكن لأي منهج أو فلسفة لغوية، أو رؤية علمية أن تنجح وتثبت ذاتها ومقبوليتها وتواصلها إن لم تضع الإنسان في مركز الاهتمام إذ به تقع السيورة في هذا الوجود وهذا ما ابتعدت عنه البنوية ومنذ بداية التأسيس، وهذا أكبر دليل على محدوديتها. فإذا كان لها النجاح بوجود أتباع مؤمنين بأفكاره وكان لها النجاح في إقصاء الإنسان فإنها لم تصنع القناعة ولم تؤد نتائجها إلا إلى الدمار والهزيمة والمعاناة وكان هذا سببا لظهور فلسفات تابعة ومناهج نقدية ونظريات تتجاوز الطرح البنوي في إعادة الاعتبار للإنسان.

6- البنوية بين القبول والرفض:

لقد عانت البنوية كما عانت الشكلائية أزمة الحضور والقبول في فرنسا وخارج فرنسا، لقد هوجمت من قبل مجموعة من النقاد الإيديولوجيين من بينهم أصحاب النزعة الماركسية لأن الفلسفة الماركسية "تعتبر أي إنكار للتاريخ أمرا مرفوضا تماما بوصفها تفسيراً موعلا في التاريخية"²². لكن من جهة أخرى وكما أسلفنا الذكر الفلسفة الماركسية وغيرها من الفلسفات هي التي أدت بطريقة غير مباشرة إلى ظهور المنهج البنوي بحكم تأثير النقد والأدب بالنزعات الفلسفية من جهة ومن جهة أخرى فلسفة "موت المؤلف" هي تبعية حتمية لفلسفة "موت الإله" التي كانت تحكم الفكر الفلسفي الغربي الانتشوي في تلك الفترة.

من المشاكل التي واجهتها البنوية والتي صعبت علميتها أن لكل حيز زمني ومكاني سياسته في التفكير والبحث. والفنون مهما كان موقعها فهي أولا وأخيرا رسالة إلى القارئ ووظيفتها الأساسية هي التعبير عن الواقع المحيط بالإنتاجية لا التعبير عن واقع تشكل الكلمات وقد عبر عن هذا الإشكال الشكلائي الروسي "رومان جاكبسون" بقولته القيمة وهو يأسف للخلاف الذي وقع داخل حركة "الأوباز": "إن الفن الذي كان دائما حرا في علاقته بالحياة ما كان له أن يعكس لون العلم الذي يتوج الحصن"²³. ويجدر بنا هنا حتما أن نشير إلى نقطة جوهرية وأساسية فيما يتعلق بهذه المفاهيم النقدية المنهجية وهو أن الشكلائية تتعلق فقط بدراسة الآداب الرفيعة من شعر ونثر أما البنوية فإنها تيار علمي فلسفي عام يشمل الآداب والفنون والفلسفة وعلم النفس والأنثروبولوجيا.

من المآخذ التي تؤخذ على البنوية رغم قيمتها العلمية، ورغم ريادتها في فتح أفق الدراسات في كل المجالات لأن تكون بنوية، في محاولتها بلوغ علمية العلوم التجريبية أن الأسس الكبرى لفلسفتها تقوم بالتعامل مع اللغة والخطاب وترفض الإنسان²⁴، ومن هذا المنطلق يمكن الدخول في نقد للبنوية ووهم العوالة الذي كانت تشهده سواء باعتبارها تيارا فلسفيا أو لغويا أو أن، روبولوجيا حيث أن موت المؤلف أو رفض الإنسان هو النزوع ذاته نحو الإيديولوجية التي سبق للبنوية أن صرحت بمحاربتها ورفضها المطلق. بل إن الشيء غير العادي في هذا المنهج هو خضوعه لإيديولوجية أخطر من الإيديولوجية التي يزعم أنه يحاربها وإلا ما معنى النداء بالحرية في التلاعب بالكلمات ومع الكلمات، بعد النداء بالحرية المطلقة ورفض مبدأ أن للكون إله. و"رولان بارط" يعبر عن هذا صراحة إنه لا يؤمن بشيء اسمه واحد ولا حتى بالله الواحد الأحد.. أليس هذا نزوع نحو إيديولوجية مباشرة بالانفلات الأكيد من قبضة الوجود الفردي إلى المجتمع الجمعي

في محاولة لإخضاعه للنزاعات والتيارات المتحركة في الإنتاج النقدي والتي لها علاقة مباشرة بالمحيط وكل ما يحتويه من تشكلات وتناقضات. "إن البنوية فلسفة لا إنسانية لا تاريخية لا دور للذات في إطارها أي أنها فلسفة إكراه يمارسه النسق أو النظام الضابط للبنية ... إنسان "فوكو" مكره على الخضوع للنظام وللبنى التي تخترقه وتتجاوزها، الإنسان زائف وعابر والبنى خالدة وثابتة"²⁵. بأي منطق يمكننا تحليل كلام "فوكو"؟ هل فعلا الإنسان كما يقول مجرد زيف أو خرافة، والإنسان حسبه لم تعد له قوة على تحمل أعباء العصر وبالتالي يجب أن يقصى. إذن مع من تتعامل البنوية؟

يرى "عمر مهيل" أن الفلسفة المعاصرة -ومن بينها البنوية- لا تعترف بوجود الإنسان، صحيح أنها تعترف بوجود كائنات إنسانية أما فكرة الإنسان فهي خرافة²⁶. لقد مات الإنسان حين خلق. وانتهى حين اعتقد بأنه موجود. وكأن بالعلمية البنوية تقوم على إخلاء الساحة من كل شيء إنساني وترك البنيات فقط تتحدث وتتحرك، وتتفاعل في إطار نسقي ترتضيه هيلكة الأثر.

يذهب "ميشال فوكو" إلى أخطر مما يذهب إليه "بارط" إذ أنه يصف اليسار الفوضوي بالضبابية بسبب ما يعقده من آمال على المستقبل والسذاجة بسبب إيمانه بطبيعة إنسانية طيبة. بل إن موقف "فوكو" الفلسفي قريب من عدمية "نثشه" وحديثه يبدأ حيث ينتهي حديث "نثشه" من إدراك جنون كل الحكمة وحمق كل المعرفة. إنه يرفض كل دافع للبحث عن أصل أو موضوع متعال يمكنه أن يمنح "معنى" خاصا للحياة البشرية²⁷. وربما هذا هو الأساس الذي انطلق منه المجتمع المادي الذي لم يعد يؤمن بالخير والفضيلة والطيبة ويتخبط في مجتمع يمتلئ بالحق والضعيفة والمنافسة الشريرة العمياء ويفقد الثقة في كل شيء لأن كل شيء عبارة عن هراء وسخرية وفي الآن ذاته كل شيء عادي وجاد "إن الطبيعة الشائكة لأسلوب "فوكو" لها دوافع إيديولوجية"²⁸.

لنعود مرة أخرى من أجل الإقرار بتلك النزعة الإيديولوجية التي كانت البنوية تحاربها. بل حتى إن الشيء غير العادي "يعتبره "فوكو" عاديا، فمجيده للجنون يتجاوز السخرية، ويرى بأنه شكل من أشكال الخداع والتأثير. بل ويتطابق الجنون عند "فوكو" مع السوية والعبقرية²⁹.

ثم يطالب "فوكو" الفرد بالتححر من قبضة المجتمع الذي يملئ عليه قوانينه وقواعده. إذ أن الكبت والقانون عنده يعني القوة وهذه القوة هي دافع تحطيمي، ليتجاوز "فوكو" هذا الإطار بقوله إن الشذوذ يضمه جسم الإنسان العادي باعتباره إمكانا لا بد من تحديده وعلاجه وضبطه واتقاء شره عن طريق الاستبطان والاعتراف³⁰، فكل نفس بشرية تنبني على الشذوذ، إنه الأصل، ومن يدعي غير ذلك فهو يكبح جماح قوة إما أن تنفجر أو تصاب بالكبت وتعتقد نفسيا.

غيرت البنوية المتأثرة بالفلسفة مسار النقد والأدب والحياة وتوجهت القضايا الإنسانية في أغلبها نحو التحرر من كل شيء من بوتقة الماضي والحاضر والمستقبل. أصبح الإنسان مع الفكر البنوي ذو السلطة الأحادية منهجا يوجه طموحات الإنسان ونخبها في الآن ذاته ويبحث عن شيء جديد يجعل الفرد والمجتمع والإنسانية تنمرد على كل ما هو موجود وفي الآن ذاته تخضع للحمية الكونية التي تشكل المادة من وحدات منتظمة تخضع لقانون الثبات.

أصبحت روح التمرد هي التي توجه طموحات الفرد نحو الحرية التي لا تحدها حدود مكسرة كل القيود، إذ ترى في القوانين الوضعية قيودا وهمية تقيد حركة العلم والكائنات الإنسانية، يسعى يبحث لنفسه عن الخلود الأبدي، من خلال المنتجات .. من خلال الرؤى الفلسفية، من خلال الإنتاج الأدبي.. يقول "بارط" فاتحا باب التأويل على مصراعية

في حكمه على المتنوع: إن العمل الأدبي غامض بطبيعته وإن الذين لا يرون في الأدب إلا معنى واحدا هم أناس ضيقوا الأفق متسلطوا المزاج يتوهمون بأنهم علميون بينما هم مترمتون في آرائهم بشكل لا يغتفر³¹، ثم يطالب "بارط" بالابتعاد عن الوضوح لأن الوضوح هو لغة طبقة وغرضها التعمية والتعمية قوة شريرة تآمرية غرضها اللاأخلاقي إعطاء الظواهر التاريخية أو الثقافية مظهر الظواهر الطبيعية، والرد الوحيد على التعمية هو فضحها³².

مبدأ يجعل من الوضوح لغة طبقة، واللاوضوح لغة راسخة بديلة، مع سلطة نص تفرض وجودها بعدها كما يقول "بارط" مجموعة من النصوص المكتوبة بالفعل والموجودة في أرشيف المجتمع الجمعي.

ولا يبتعد "جاك لاكان" كثيرا عن "فوكو" في إقراره بتعدد الحياة والنفس البشرية وبنية اللاوعي التي تتحكم حتى في أقوالنا وأفعالنا ولا غرابة في هذا ماداموا كلهم من أعلام البنوية، بل من أكبر أعلام الفكر البنوي في فرنسا والعالم بأسره. ولهم دور لا يستهان به في تغيير كثير من المفاهيم والطروحات والاستراتيجيات المتحكمة في تشكيل الوعي الفردي والجمعي تشكيلا مغايرا تماما لما كان سائدا قبلا، يقول "جاك لاكان": "التوترات والصراعات النفسية قد أسهمت في تكوين بنية اللغة الإنسانية في المقام الأول ... وإن اللغة تخلق اللاوعي³³". فحسب "جاك لاكان" هناك علاقة انعكاسية بين بنية اللغة الإنسانية واللاوعي، فاللغة ساهمت في تكوينها التوترات والصراعات النفسية، واللغة تخلق اللاوعي،

إن البنية اللغوية تابعة للبنية النفسية، ولكي نحصل على إنسان سليم ينبغي أن نعطي كل ما يستهويه ويرغب فيه ويتحرر من كل شيء مادام الكبت هو سبب الأزمات والعقد النفسية وينبغي على الإنسان أن يلغي المعتقد كما يقول "بارط"، أن يحق سلطة القهر والقوة التي تشمل الدين والعادات والتقاليد والأعراف ثم إن كل نمط إيديولوجي هي عقائد سائدة يعتقد "بارط" أنه يربط الذهن عن التصرف الحر في الحياة.

الخاتمة:

حاولت البنوية أن تكون المنهج البديل الذي يقارب النصوص مقارنة علمية بمحتة لكنها أصابت حيننا وضلت حيننا آخر، وهكذا هو مجال البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، إذ به يظل خصباً، حيويًا، نشيطاً، متحركاً. وقد سجلنا جملة من النتائج التي تمثل حوصلة بحثنا لعل من أهمها:

- لم تكن البنوية فلسفة، إنما هي منهج لمعينة الوجود، منهج يدفع الفكر إلى التساؤل، والشك، والدحض.
- اهتمت البنوية بمجالات علمية حيوية متعلقة بميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، فدرست اللغة والأدب والنقد، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، وعلم النفس.

- رغم ما لافته البنوية من رفض واستهزاء وسخرية في البلدان التي ظهرت فيها فضلا عن المتلقي الأجنبي عنها، لاسيما العربي إلا أنها تصدت لقوى الردع التي كانت تناصبها العداء وأثبتت وجودها أمام الساحة النقدية العالمية لفترة ليست بالقصيرة بسبب سعة إنتاجها وسرعة انتشارها إلى أن انبثقت عنها مناهج بنوية مختلفة عنها وتابعة لها.

- إن العلمية البحتة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية يكاد ينعدم، لأنها دائما مات خضع لإيديولوجية من نوع ما. وعليه فوصف منهج علمي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بالحيادية، لهو أمر مستبعد إلى حد بعيد،

والحائثة هي قراءة جانب وإهمال جانب آخر، وعليه فرغم ما للمنهج البنوي من قيمة إلى أن ظهور مناهج تعيد لصاحب الأثر قيمته يتم على أن المنهج البنوي تشوبه الكثير من النقائص وتتحكم فيه إيديولوجية، بناء هدامة.

- إنصاعت البنوية للإيديولوجية التي أكدت في أهم مبادئها أنها تحاربها، وهو إقرار آخر بأن الذات تسيّر فكر الإنسان، وتوجه مساره.

هوامش:

¹ جون ستروك: البنوية وما بعدها - من ليفي شتروس إلى دريدا، ترج: د.محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 92

² المرجع نفسه، ص. ص 82، 83

³ المرجع نفسه، ص 76.

⁴ نيبولي مري: العبقريّة، ترج: محمد عبد الواحد محمد، مرج: عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، 2000.

⁵ جون ستروك: البنوية وما بعدها، ص 76

⁶ المرجع نفسه، ص 12

⁷ عمر محييل: البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999، ص 17

⁸ كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984، ص 7.

⁹ جون ستروك: البنوية وما بعدها، ص 19

¹⁰ المرجع نفسه، ص 30

¹¹ عمر محييل: البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر ص 92

¹² نظرية المنهج الشكلي - نصوص الشكلايين الروس، ترج ابراهيم الخطيب، ط 1، مؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية لناشرين المتحدّين، بيروت - الرباط، 1982، ص 10

¹³ جون ستروك: البنوية وما بعدها، ص 77

¹⁴ عمر محييل: البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 20

¹⁵ صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2002، ص 79

¹⁶ عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، ص 216

¹⁷ جون ستروك: البنوية وما بعدها، ص 222.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 82

¹⁹ المرجع نفسه، ص 96

²⁰ المرجع نفسه، ص 99

²¹ عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، ص 293.

²² جون ستروك: البنوية وما بعدها، ص 18

²³ نظرية المنهج الشكلي، ص 26

²⁴ صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص 192

²⁵ عمر محمبل: البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر ، ص 92

²⁶ المرجع نفسه ، ص 96

²⁷ صلاح فضل: منهج النقد المعاصر ، ص 192

²⁸ جون ستروك: البنوية وما بعدها، ص 113

²⁹ المرجع نفسه، ص. ص 134 ، 135

³⁰ المرجع نفسه ، ص 125

³¹ المرجع نفسه، ص 82

³² المرجع نفسه، ص 84.

³³ جون ستروك: البنوية وما بعدها ، ص. ص 171 ، 172.

قائمة المراجع:

- 1-جون ستروك: البنوية وما بعدها - من ليفي شتروس إلى دريدا، ترج: د.محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، 1996.
- 2-صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، د.ط ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب 2002.
- 3-عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنوية إلى التفكيك، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، د.ت.
- 4-عمر محمبل: البنوية في الفكر الفلسفي المعاصر، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- 5-كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1984.
- 6-نيبولي مري: العبقرية، ترج: محمد عبد الواحد محمد، مرج: عبد الغفار مكاي، د.ط، عالم المعرفة، د.ت.
- 7-نظرية المنهج الشكلي - نصوص الشكلايين الروس، ترج ابراهيم الخطيب، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية لناشرين المتحدنين، بيروت - الرباط، 1982.